

القول على الله بغير علم

بسم الله الرحمن الرحيم

بعد القرون المفضلة المتميزة بالاتباع والفقهاء في الدين، انحدرت الأمة في قرون التخلف إلى حضيض التقليد الجاهل والمتعصب المذهبي، وانحرفت فئة من جهلة العباد إلى التأسى بعباد اليهود والنصارى، وانحرفت فئة من المفكرين المناهضين للتقليد إلى إخضاع النصوص الشرعية لشطحات الفكر الوثني، تصديقاً لما أخبر به النبي صلى الله عليه وسلم أمته: «لتتبعن سنن من كان قبلكم شبراً بشبر وذراعاً بذراع»، قالوا: اليهود والنصارى؟! وفي رواية: فارس والروم؟ قال: «فمن الناس إلا أولئك» [متفق عليه].

ولم يستثن الانحراف الفكري الفقه في كتاب الله ووجيه: إلى رسوله صلى الله عليه وسلم؛ فجاء من كبار مفكري الصوفية من يؤول الآية المحكمة: {إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أُنذِرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْتَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ}، بما يناقضها: {إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا}، أي: سترُوا محبتهم لله عن غيرهم {سواءٌ عليهم أُنذِرْتَهُمْ} يا محمد {أَمْ لَمْ تُنذِرْتَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ} بك لأنهم لا يأخذون إلا عني، {ختم الله على قلوبهم} فليس فيها إلا محبتي، {وعلى سمعهم} فلا يسمعون إلا مني، {وعلى أبصارهم غشاوة} [البقرة: 76] فلا يرون إلا إياي [المفتوحات المكية لابن عربي ج1، ص115].

وبمثل هذا التحريف عن مواضع الكلم أول قول الله عن قوم هود: {قَالَ مَا رَأَوْهُ إِلَّا بُرْحَانَ كَذِبٍ لَّهُمْ أَذْيَبٌ لَهُمْ فَعَلُوا مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ} [هود: 109] وبمثل هذا التحريف عن مواضع الكلم أول قول الله عن قوم هود: {قَالَ مَا رَأَوْهُ إِلَّا بُرْحَانَ كَذِبٍ لَّهُمْ أَذْيَبٌ لَهُمْ فَعَلُوا مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ} [هود: 109] وبمثل هذا التحريف عن مواضع الكلم أول قول الله عن قوم هود: {قَالَ مَا رَأَوْهُ إِلَّا بُرْحَانَ كَذِبٍ لَّهُمْ أَذْيَبٌ لَهُمْ فَعَلُوا مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ} [هود: 109] وبمثل هذا التحريف عن مواضع الكلم أول قول الله عن قوم هود: {قَالَ مَا رَأَوْهُ إِلَّا بُرْحَانَ كَذِبٍ لَّهُمْ أَذْيَبٌ لَهُمْ فَعَلُوا مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ} [هود: 109]

ص109.

وحين لا يبلغ الانحراف هذا المبلغ، تُدَنَّسُ التفسير - بعد عصر الصوفة - بالقصص الإسرائيلية، والروايات المكذوبة والسفسطة العقلية، من ذلك ما روي بغير سند صحيح عن فتنة داوود عليه السلام، وقصة الغرانيق، وما أول به محكم قول الله تعالى: {وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ} [المائدة: 120].. قال السيوطي رحمه الله في تفسير الجلالين: (واختص العقل ذاته، فليس عليها بقادر).

وفي هذا العصر الذي رغب فيه العرب عن لغة الكتاب والسنة، واحتضنوا لغة الجريدة والإذاعة، استُبيحَ حمى التفسير فلم يتورع عنه المثقف الجاهل بشرع الله: استباحه الخطيب والواعظ والكاتب والطبيب والمهندس، وكل من هب ودب وهان عليه القول على الله بغير علم.

وصار من مسلمّات مفسري العصر، والمخدوعين بزيهم وألقابهم (مثلاً):

1- أن الله لا يؤمن من غضبه وعقابه إلا المصلحين، أما المصالحون فلا أمان لهم استدلالاً بقول الله تعالى: (وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ الْقُرَى بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ) [هود: 117]، فإنه لم يقل المصالحون.

وغاب عن إدراكهم أن كلمتي: (المصالحين) و (المصلحين) وردتا في كتاب الله بمعنى واحد؛ قال الله تعالى في غير الأنبياء من بني إسرائيل: (وَالَّذِينَ يَمُسُّوْنَ بِالْكُتَابِ وَآقَامُوا الصَّلَاةَ إِنَّا لَا نَضِيعُ أَجْرَ الْمُصْلِحِينَ) [الأعراف: 170]، وقال تعالى في عدد من الأنبياء: (وَأَدْخَلْنَاهُمْ فِي رَحْمَتِنَا إِنَّهُمْ مِنَ الصَّالِحِينَ) [الأنبياء: 86]، وقال تعالى في الأمرين بالمعروف والنهي عن المنكر: (وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَيُرَبُّونَ أَوْلَادَهُمْ فِي السُّرُورِ وَالسُّكْرَانِ وَالسُّبْحِ وَالسُّعْرَانِ) [آل عمران: 114]، وقال تعالى: (وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِن بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرثُهَا عِبَادِيَ الْمَصْلِحُونَ) [الأنبياء: 105].

وورد وصف المصلحين بالمصالحين - والعكس - في آيات كثيرة، ولكن التدبر قليلاً؛ إذ شغل مكانه بالتنطع والتشدد والفيهقة، وبالحفظ والتجويد الذي لا يتجاوز المحاجر، نسأل الله المغفرة والهداية للجميع.

2- أن الله لا يضيف إلى نفسه من العباد إلا المصلحين، استدلالاً بقوله الله تعالى: (إِنَّ عِبَادِي لَرِئِيسٌ لَّكَ عَالِيَهُمْ هُمْ سُلْطَانُ) [الحجر: 42]، وقوله تعالى: (وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِّلْعبِيدِ) [فصلت: 46].

ولم تتسع عقولهم لتحقيق أن المصالحين المصالحون؛ قال الله تعالى: (أَأَنْتُمْ أَضَلُّ لَتُمْ عِبَادِي هَؤُلَاءِ أَمْ هُمْ ضَلُّوا السَّبِيلَ) [الفرقان: 17]، وقال تعالى: (وَقُلْ لِي مِّنْ عِبَادِي الْمَشْكُورِ) [سبأ: 13]، وورد المعنى بلفظ (عبادك) و (عباده) و (عبادي) في آيات وأحاديث كثيرة.

3- أن الله قدم السمع على البصر بياناً لأهمية الأول في مثل قوله تعالى: (أَمَّن يَمْلِكُ الْمِسْمَاحَ وَالْمَبْصِرَ) [يونس: 31]، وقال الله تعالى: (فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعًا بَصِيرًا) [الإنسان: 2]، فلم يردعهم مثل قول الله تعالى: (وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَا يُبْصِرُونَ بِهِ) [آذان: 1]، ولا يسمعون به) [الأعراف: 179]، وقوله تعالى: (أَبْصِرْ بِهِ وَأَسْمِعْ) [الكهف: 26]، عن القول عليه بغير علم.

4- أن الله قدم الإشارة على الإنداز في وصف الرسل، دليلاً على فضل الأولى - على الثاني - في مناجاة الدعوة، مستدلين بقوله الله تعالى: (وَمَا نُرْسِلُ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا مَبشُرِينَ وَمُنذِرِينَ) [الأنعام: 48]، وقوله تعالى: (بشيراً ونذيراً) [البقرة: 119].

وضاقت أفهامهم عن استحضار قول الله تعالى: (إِنَّ نِيْلَ لِكُمْ مِّنْهُ نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ) [هود: 2]، وقوله تعالى: (إِنَّ أَنْتَ إِلَّا نَذِيرٌ) [فاطر: 23]، وقوله تعالى: (إِنَّمَا تَنْذِرُ مَنِ اتَّبَعَ الذِّكْرَ وَخَشِيَ الرَّحْمَنَ الْعَلِيمَ) [يس: 11]، والآيات مثلها كثيرة.

والمسبب الأول في نقص المدارك أن العلم بشرع الله فقد المشمول والإحاطة والتدبير - الذي كان سمة للأئمة الأول ومن سار على نهجهم - ومُليء فراغه بالألقاب الدراسية المغربية والزي المبتدع، (ومسخت الجوامع) فتحوّلت جامعات لإعداد الموظفين (كما يروى عن طه حسين رحمه الله).

ولأن المطابع ودور النشر والمكتبات التجارية تقول دائماً: هل من مزيد؟ فإن أدياء العلم الشرعي مستعدون لاغتنام فرص المكسب من الغنائم المباردة: مزيج من النقل الحرفي والفكر المضحل، ثم يتوَجَّع الناتج بحفظ حقوق الطبع والتأليف، وحظر النقل والماقتباس، خلافاً للمثل المصري: (السارق من السارق كالموارث من أبيه)

ولأن شباب ما يسمى بـ(الصحوة الإسلامية) - بقوة حماسه وضعف بصيرته وقلة تثبته - مندفع لتشجيع واستهلاك كل ما يوصف بالإسلامي والإسلامية من كتاب وشريط وخدمة تجارية: فإن الوراقين والمكتّاب والمحركيين والحزبيين (الإسلاميين) مستعدون لاستغلال فراغه وعطشه وجِدته بكتب التفسير والمسير، والمخطب والدروس الفكرية و(تجييرها) للمصلحة الفردية أو الحزبية.

والمحصيلة النهائية: مساوئ كثيرة وخطيرة، أكبرها: القول على الله بغير علم في الحاضر، والمرونة على ذلك في المستقبل، إن لم يتدارك ولادة الأمر من المسلمين - علماء وأمرأء - هذا الأمر، ويردوه إلى سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم، وسنة خلفائه، وفقه صحابته والهدى في القرون المفضلة. □ وصلّى الله على محمد وعلى آله وسلم.

كتبه/ سعد بن عبد الرحمن الحصين عفا الله عنه، تعاوناً على البر والتقوى وتحذيراً من الإثم والعدوان.